حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٨ (عدد أكتوبر – ديسمبر ٢٠٢٠)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

طبيعة الإنسان في ضوء سورة العاديات (دراسة موضوعية)

سميرة بنت محمد جالية*

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك- جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن- كلية الآداب – قسم الدراسات الإسلامية

المستخلص

والبحث يتناول ما ورد في السورة، فيشرح الآيات إجمالاً، كما يبين طبيعة الجحود في الإنسان، وطبيعة الحب الشديد للمال، والذي يدفعه للجشع في تحصيل المال ومنع الحقوق، كما يوضح علاج السورة لتلك الصفات الذميمة، وذلك بتربية الإنسان على الإيمان بالله تعالى، والخوف منه، والمراقبة له؛ لأنه المطلع على خبايا نفسه ووساوس صدره، فهو الخبير سبحانه بعباده وخلقه، وكذا الإيمان باليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، فعندما يبعثر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، تعرض صحائف الأعمال، ويحاسب كل على ما فعل، ويجازى على كل صغيرة وكبيرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه التربية على الإيمان بالله واليوم الآخر، كفيلة بتزكية النفس، واستقامتها على صراط الله المستقيم.

الكلمات الدالة: طبيعة، الإنسان، سورة العاديات.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٠.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي دعا إلى إصلاح النفس وتهذيبها وإصلاح شأنها، والصلاة والسلام على رسولنا الصادق الأمين، الذي نصح الأمة وعلمها مكارم الأخلاق، وبعد:

فقد اهتم القرآن الكريم بالنفس الإنسانية اهتماما كبيراً؛ إذ وضعها في كفة واحدة، مقابل الكون بما فيه من عوالم، إذ وضعه في كفة أخرى؛ قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

والنفس تجمع كثيراً من الصفات والخصائص الإنسانية التي تؤثر بشكل ظاهر في السلوك الإنساني، فالنفس تهوى، ولها شهوات، وتشعر بالمشقات، وتصبر وتضجر، وتجود وتبخل وتشح، وتفرح وتحزن، وهي تعمل وتكسب أعمال الخير والشر عن وعي كامل، فهي صاحبة إرادة حرة مسؤولة، كما قال جل وعلا: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩]، وغيرها من الآيات التي تؤكد هذا المعنى.

وقد عالج القرآن الكريم بتربيته العظيمة النفس الإنسانية، ومن السور القرآنية التي تناولت بعض خصائص النفس الإنسانية سورة العاديات، فهي سورة عظيمة، تدور حول الإنسان وما رُكّب فيه من صفات سيئة، ثم تضع أيدينا على العلاج الناجع لتلك الصفات.

فهي سورة تطرق القلوب بسرعة أحداثها، ومباغتة آياتها وإيقاعاتها، لتنتفض من غفلتها ونومها قبل أن ينتهي الزمان وينتهي العمر، ولتمسح غشاوة المعاصي والذنوب ورينها عن غطاء القلوب، ولتسرع للعمل كفارس مغوار؛ لتستنير بنور الإيمان والعمل الصالح، فهي تُعلمنا كيف نكون على حذر وترقب دائم، مع المسابقة والمسارعة في البذل والعطاء والمجاهدة في سبيل الله قبل فوات الأوان، وانقطاع الأنفاس الأخيرة بهذه الحياة، فهي تنبيه وتحذير وزجر لسوء العاقبة والمصير، وسرعته في المجيء لمن غفل ونام في سبات الشهوات والمعاصي، وأنكر على ربه تفضله عليه بالنعم والخير الكثير.

وقد وقع اختياري لهذه السورة:

١- لما فيها من معالجة للطبع الذميم في الإنسان -العلاج الشافي من كل داء -، ولإكمالها للنقص البشري.

٢- ولحاجة الدعاة والمصلحين للتعرف على طبائع الإنسان؛ ليسهل لهم التعامل والدعوة للبشر.

٣- لعدم تطرق أي باحث لهذا الموضوع أو بحثه بهذه الكيفية فيما أعلم.

وتهدف هذه الدراسة:

١- لتنبيه القلوب من غفلة الدنيا، والعودة إلى الهدف الحقيقي من وجودنا وهو أن لا تكون أنفاسنا إلا لله وحده.

٢- وإثبات أن القرآن الكريم يعالج كل قضايا العصر، فهو كتاب الله الباقي المعجز إلى أن تقوم الساعة.

٣- والبحث عن سر النفس وجوهرها، وأن الإنسان إذا أراد السعادة والاطمئنان فلا يجد حقيقتها إلا في استجلاء القرآن الكريم؛ لأنه المنبع الذي نستخرج من أعماقه اللآلئ والدرر.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع وهدفه وسبب اختياره.

والتمهيد عبارة عن مدخل للبحث (بين يدي السورة).

والمبحث الأول: طبيعة الجحود في النفس الإنسانية.

والمبحث الثاني: طبيعة الحب الشديد للمال في النفس الإنسانية.

والمبحث الثالث: العلاج القرآني: يشتمل على:

المطلب الأول: تذكر الآخرة والقبر خاصة.

المطلب الثاني: الحرص على تزكية القلب وتطهيره.

المطلب الثالث: الخوف من الله ومراقبته.

والخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد
بين يدي السورة

قال البقاعي - رحمه الله – وهو يتحدث عن مقاصد سورة العاديات: «مقصودها إعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم وهو العاديات، والمقسم عليه وما عطف عليه، وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك؛ لما هدى إليه القسم والمقسم عليه»[١].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ ﴾ [العاديات: ١] أقسم الله تعالى في هذه الآية بالخيل في الحال الذي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، والعاديات جمع عادية، وهي التي تسرع في الجري، وضبحاً، الضبح هو صوت نفسها في صدورها عند اشتداد عدوها، وهذا الصوت هو غير الهَمْهَمَة وغير الصهيل، فصار المعنى: والخيل التي تعدو في خفّة، وسرعة فيخرج منها صوت من صدرها ليس بصوتها المعتاد من صهيل أو همهمة وذلك عند اشتداد جريها [٢].

قال ابن عاشور - رحمه الله - : «أقسم الله بالعاديات جمع العادية، وهو اسم فاعل من العدو وهو السير السريع يطلق على سير الخيل والإبل خاصة، وقد يوصف به سير الإنسان وأحسب أنه على التشبيه بالخيل ومنه عداؤو العرب»[٣].

والعدو السريع إنما يكون لتحقيق هدف ما أو غاية يراد الوصول إليها بأقصر الأوقات وأنسبها، دون أن يحصل ضرر من الأضرار التي يتوقع أن تباغت الشخص لو أخر سرعته، أو اختار زمناً لا يتناسب مع تلك السرعة، كما أن العدو السريع أحيانا يكون بسبب التنافس والتسابق مع الآخرين لأجل الفوز أو الوصول لهدف ما.

كما أن العدو السريع يزيد من سرعة التنفس والتهيج لجميع أعضاء البدن؛ لأجل بذل الطاقة الكبيرة لتتناسب مع سرعة الجري للحاق قبل فوات الأوان، حيث لو فقدت الطاقة الداخلية لن يستطيع أن يعدو بسرعة حتى يصل للهدف المطلوب فيكون من المتأخرين في عدوه، قال ابن عاشور – رحمه الله - : «الضبح: اضطراب النفس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، وهو من أصوات الخيل والسباع»[٤].

وأورد ابن كثير عن علي ﷺ قال: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ ﴾ أنها الإبل تذهب من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران[٥].

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ ﴾ [العاديات: ٢] الموريات: جمع مورية، وهي الخيل إذا ضربت بحافرها على الحجارة خرج منها نار، والمعنى: قسم من الله بالخيل التي تجري جريا شديدا فيصدر منها صوت الضبح، فيتوقد شرر النار من شدة احتكاك أقدامها بالصخر والحصى، وهذا التوقد أشد ظهورا في الليل وإن كان موجوداً في النهار[٦].

فالمقسم به هنا هو الخيل في حال عدوها، حاملة فرسانها إلى ميدان القتال، فهي تعدو ضابحة، وهي في عدوها توري ناراً تنقدح من احتكاك حوافرها بالحجارة التي تعدو عليها.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ ﴾ [العاديات: ٣] هي الخيل تغير بفرسانها، على العدو عند الصباح، هذا قول أكثر المفسرين[٧]، فهذه الخيل تغير في الصباح على العدو؛ لأن الإغارة في الليل تجعلهم لا يرون شيئاً، والإغارة في الصباح تعينهم على معرفة حال عدوهم، ويهجمون صباحاً في أول النهار وليس في آخره أو وسطه؛ لأن العدو في آخر النهار ووسطه يكون في قمة الاستعداد.

فلكي يحدث الفوز الأفضل في تحقيق الهدف من الغزو لا بد أن يختار الوقت والزمان الأنسب للإغارة على العدو، فذكر الله سبحانه وقت الصباح بقوله ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ ﴾ حيث يكون ذلك الوقت مع بداية اليوم، والناس في غفلة نومهم، ولم تبدأ حركة الحياة بعد، ولم ينتبه الناس لما يدور من حولهم، والهدوء يعم المكان، والرؤية بدأت تتضح أفضل مما كان عليه الحال ليلاً، كما أن حركة الكون كلها بجمالها وسكونها تعطي للنفس إشراقات جميله من التفاؤل والأمل والإقبال بصفاء فكر وبصيرة أشد لتحقيق الهدف، وقد «كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوما لم يغر حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار بعد ما يصبح، فنزلنا خيبر ليلا»[٨]، يضاف لذلك أن الإغارة فيها معنى المباغتة والمفاجئة في الحدث والفعل حيث لا تعطي الفرصة لمن أغير عليه أن يعد نفسه ويتجهز للمواجهة أو يأخذ حذره، فيكون ذلك سرعة في تحقيق الفوز والوصول للهدف لمن أغار.

وقال من فسرها بالإبل: هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى[٩].

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ ﴾ [العاديات: ٤] هو: المكان الذي إذا حلت فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو، وقوله: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾ [العاديات: ٥] قال العوفي عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والضحاك: يعني جمع الكفار من العدو، ويحتمل أن يكون: فوسطن بذلك المكان جميعهن، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة[١٠].

قال ابن عاشور: «﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾: أصعدن الغبار من الأرض من شدة عدوهن، والإثارة: الإهاجة، والنقع: الغبار»[١١]، فمع سرعة العدو الشديد المستهلك لكل طاقة البدن لا بد أن يكون لذلك أثر على ما يَحتك به البدن وخاصه الأقدام من الأشياء حولها، فأكثر ما يحتكُّ به تراب الأرض، فهذه السرعة الكبيرة تعمل على إثارة وإهاجة التراب، فيخرج منه الغبار ليتناثر في الجو، وهذا الغبار سيعيق الرؤية أو يجعل غشاوة على البصر لا يستطيع أن يرى المغار عليه سرعة ما يقدم عليه أو شدته، فهو ما لبث أن استيقظ من نومه ليفرك عينيه من أثر النوم، فلا يكاد أن ينتهي من ذلك إلا وقد وجد من أغار عليه في وسط داره وقد أحكم قبضته عليه.

وفي تفسير البغوي: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾ أي: دخلن به وسط جمع العدو، وهم الكتيبة يقال: وسطت، القوم بالتخفيف، ووسطتهم، بالتشديد، وتوسطهم بالتشديد، كلها بمعنى واحد[١٢].

وقال ابن عاشور: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾ «جيء بهما فعلين ماضيين ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أن الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة ما قصد منها من الظفر بالمطلوب الذي لأجله كان العدو والإيراء والإغارة عقبه وهي الحلول بدار القوم الذين غزوهم إذا كان المراد بالعاديات الخيل»[١٣].

والمعنى: قسم من الله بالخيل التي تجري جرياً شديداً، فيصدر منها صوت الضبح، ويتوقد شرر النار من شدة احتكاك أقدامها بالحصى، وجريها هذا يكون في المعركة فتثير أغبرة وأتربة من شدة الجري حتى تصير هذه الخيل في وسط جمع العدو.

فالمشهد الأول في السورة متعلق بقسم الله بالخيل العادية، الضابحة بأصواتها، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح فجأة من غير انتظار، المثيرة للنقع وللغبار، الداخلة في وسط العدو تأخذه على غرة، وتثير في صفوفه الذعر، وتوقع فيه الفوضى والاضطراب، فهو تصوير بديع لمشهد المفاجئة والإغارة بحدوث الهدف المطلوب مع السرعة المتزايدة، حيث كان القوم والجمع في بيوتهم آمنين مطمئنين مستبعدين لأي خطر يحيق بهم، فكانت المفاجئة.

المبحث الأول:
طبيعة الجحود في النفس الإنسانية

من طبيعة النفس الإنسانية الجحود وقلة الشكر الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النمل: ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال جل في علاه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: ٩]، و﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الملك: ٢٣].

فالإنسان جحود لنعم الله، ولا يعترف بفضله عليه، ولا يشكره حق شكره، بل سيماه الإعراض والنكران، حتى لو لجأ لربه وخالقه في حال الشدة والضيق، فإنه سرعان ما ينسى ويجحد عند السعة والعافية، قال جل وعلا: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر: ٤٩]، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥ – ٦٦]، ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٣]، و﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٥١].

وفي هذه السورة المباركة – سورة العاديات – نجد القِسْمَ الثاني منها يتمثل في المقسَم عليه، وأول شيء يظهر لنا فيه هو: جحودُ الإنسان وتذكُره الشرَّ ونسيانه الخير، وهو مقرٌّ معترف بذلك ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [العاديات: ٦ – ٧]، إلا أن هذا الاعتراف قد يَقوى أحيانًا ويظهر، وترى الإنسان حينئذٍ يندم على ما فرط، وأحيانًا يختفي ذلك الصوت في غمار الحياة، فهذا الجحود والنكران بمثابة النار التي تَخرج من احتكاك سنابك الخيل العاديات بالأرض من أثر العَدْو، فهو ضوء خافت يبدو أحياناً ويختفي أحياناً أخرى، ويظهر في الظلام أوضحَ من ظهوره في النهار.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾: «هذا جواب القسم، أي طبع الإنسان على كفران النعمة. قال ابن عباس: ﴿ لَكَنُودٌ ﴾ لكفور جحود لنعم الله. وكذلك قال الحسن. وقال: يذكر المصائب وينسى النعم. أخذه الشاعر فنظمه:

يا أيها الظالم في فعله ... والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم!»[١٤].

وقال ابن عاشور – رحمه الله - : «والكنود: وصف من أمثلة المبالغة من كند ولغات العرب مختلفة في معناه فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي. والمعنى: لشديد الكفران لله.

والتعريف في الإنسان تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء، وكمل أهل الصلاح لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره، وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته.

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ فلذلك كان الاستغراق عرفياً أو عاماً مخصوصاً، فالإنسان لا يخلو من أحوال مآلها إلى كفران النعمة، بالقول والقصد، أو بالفعل والغفلة، فالإشراك كنود، والعصيان كنود، وقلة ملاحظة صرف النعمة فيما أعطيت لأجله كنود، وهو متفاوت، فهذا خلق متأصل في الإنسان، فلذلك أيقظ الله له الناس ليريضوا أنفسهم على أمانة هذا الخلق من نفوسهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج: ١٩]، وقوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦، ٧]»[١٥].

فالكَنود هو الكفورُ الذي يَنسى الخير ويَذكر الشرَّ، فإذا جاءَته النعمة لم يَشكر، وإذا نزلت به البلية لم يصبر، وهو طبعٌ يدل على قسوة القلب، تلك القسوة التي نراها في مشهد الغزو والإغارة الذي صوَّره لنا القسَم.

وقد جاء عن بعض المفسرين أن مشهَد الإغارة الذي بدأت به السورة هو مشهد الجهاد في سبيل الله، والذي يظهر لي أنه يصوِّر مشهد الإغارة بشكل عام بغض النظر عن المغير والمغار عليه؛ وذلك لأن السورة مكّية، ولم يكن الجهاد قد شُرع في ذلك الوقت؛ وعلى هذا فالقسم إنما يصور مشهدًا مألوفًا عند العرب قد اعتادوا عليه، وهو مشهد الإغارة، وهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين مشهد الخيل المغيرات، وبين ما يَركب في الإنسان من جحودٍ وحب للمال.

وفي هذا المقطع من السورة – وهو المقطع الثاني - تنتقل السورة لهذا المشهد الجديد ليتسلسل ويرتبط بالمشهد الأول؛ حيث التخصيص هنا للإنسان المكلف الذي أراد الله سبحانه أن يعلمه ويوصل إليه العبرة من خلال المثل الواقعي الملموس في واقع الحياة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات: ٦ – ٨] بدأ الحديث في هذا المقطع عن الصفات السلبية في الإنسان، والتي لا يمكن أن يغيرها إلا الإيمان ومجاهدة النفس في تزكيتها والتخلص من أمراضها واضطراباتها، فبدأ الله وصف الإنسان بالكنود، وهو شديد الكفران للنعم.

ويقول الإمام الرازي – رحمه الله - : «واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس، فلا بد من صرفه إلى كافر معين، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقيه من ذلك»[١٦].

وقال الراغب الأصفهاني – رحمه الله – في معنى كلمة (كنود): «أي: كفور لنعمته، كقولهم: أرض كَنُودٌ: إذا لم تنبت شيئاً»[١٧].

فبعض الناس يكفر بنعم ربه بعد أن أعطاه الكثير منها ويزيده بعطائه كل يوم، فهذا الإنسان شاهد على نعم ربه عليه، فهو المتكفل بالربوبية والإنعام والرزق لكل خلقه، لكن صنف من الناس لا يؤدي حق ربه بشكره على تفضله وإنعامه، بل في كثير من الأحيان يستخدمها في معصيته، والإساءة لخلقه، فهذا الإنسان الذي فُقد من قلبه طعم الشكر لنعم الله، غالباً ما يتصف بالبخل والحب الشديد للمال، ولذا جاءت الآية ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات: ٨]، والمراد بالخير هنا: المال، وسيأتي تفصيل الكلام على ذلك في المبحث التالي بإذن الله تعالى.

يقول ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - : «أما المقسم عليه فهو الإنسان فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾ [العاديات: ٦] والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي أن جنس الإنسان، إذا لم يوفق للهداية فإنه ﴿ لَكَنُودٌ ﴾ أي: كفور لنعمة الله عز وجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، فعلى هذا يكون عامّاً أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنوداً لربه عز وجل، والكنود هو الكفر، أي كافر لنعمة الله عز وجل، يرزقه الله عز وجل فيزداد بهذا الرزق عتواً ونفوراً، فإن من الناس من يطغى إذا رآه قد استغنى عن الله، وما أكثر ما أفسد الغنى من بني آدم، فهو كفور بنعمة الله عز وجل، يجحد نعمة الله، ولا يقوم بشكرها، ولا يقوم بطاعة الله؛ لأنه كنود لنعمة الله، ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾ [العاديات: ٧]، ﴿ إنه﴾ الضمير قيل: يعود على الله، أي أن الله تعالى يشهد على العبد بأنه كفور لنعمة الله، وقيل: إنه عائد على الإنسان نفسه، أي: أن الإنسان يشهد على نفسه بكفر نعمة الله عز وجل، والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضاً شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ ﴾ [النور: ٢٤]»[١٨].

فالمقسم عليه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾ [العاديات: ٦] المراد بالإنسان هنا: الكافر، والجاهل بربّه، الذي لم تتهذب روحه بمعرفة الله، ولم يزك نفسه بفعل محاب الله وترك مكارهه، فأقسم الله تعالى على أن هذا الإنسان كفور لربه تعالى، جاحد لنعمه عليه، يذكر المصائب ويشعر بها ويصرخ لها، وينسى النعم فلا يذكرها، ولا يشكر الله تعالى عليها، وتقديم ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ على ﴿لَكَنُودٌ﴾ يفيد الحصر، وهو يدل على المبالغة في الذم، ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾ [العاديات: ٧]، أي: وإن الله تعالى على هذا الوصف في الإنسان لشهيد، فأخبر تعالى بما علمه من الإنسان وشهد به عليه، كما أن الإنسان شهيد بأعماله وصنائع أقواله وأفعاله، شهيد على نفسه بالكفر والجحود، فالإنسان يعرف من نفسه الجحود للنعم والنكران لها وعدم شكر ربه عليها؛ لأن الأمر بالنسبة له بيِّن واضح، ومن لم يشهد بلسان المقال فهو شاهد بلسان الحال، وشهادة الحال أبلغ لعدم احتمال الكذب، ومن لم يشهد في الدنيا بالمقال شهد في الآخرة ولا بد.

المبحث الثاني:
طبيعة الحب الشديد للمال في النفس الإنسانية

لقد فطر الله جل وعلا الإنسانية كلها حب الشهوات والميل إليها، ولولا ذلك لما استمر وجود الإنسان على الأرض، ولما تحققت الخلافة فيها، وقد بينت آيات القرآن ذلك بوضوح وجلاء، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وعقّب الحق على هذه الآية مباشرة، بما يوضح أن ما تصبو له النفوس من النساء والبنين والأموال، إنما هو متاع الحياة الدنيا، وهو متاع زائل كما الدنيا نفسها زائلة؛ قال تعالى: ﴿ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥]، فالأموال – بأنواعها؛ عينية ونقدية – وكذا الزوجات والأولاد؛ من نعم الله تعالى على الإنسان، ويتمكن من خلالها تحقيق خلافته في الأرض، والاستعانة بها على مرضاة الله تعالى.

والحياة الدنيا بكل ما فيها لا تساوي شيئاً - إذا ما قورنت بالآخرة -، والواجب على المسلم أن لا تشغله دنياه عن آخرته، وأن تكون الدنيا وسيلة للفوز بالآخرة، ومزرعة يزرع فيها الإنسان بذور الخير والطاعة التي يجني ثمارها في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد: ٣٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠].

كما أن الحق - جل وعلا - حذر عباده من تحصيل المال بطرق غير مشروعة، كما حذر من إنفاقه في معصيته؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وحذر تحذيراً خاصاً وشديداً من أكل أموال اليتامى ظلماً وعدواناً؛ قال تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [النساء: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

وسبب هذا التحذير الشديد، والوعيد الأكيد: أن شهوة المال إذا ما استحكمت بالنفس الإنسانية تدفعها إلى أكل أموال الآخرين بأي طريقة ممكنة، والجشع في تحصيل المال حتى ولو كان حراماً، بل لا تتورع هذه النفس حتى عن مال اليتيم الضعيف، والذي هو في أمس الحاجة لماله الذي ورثه عن والده.

وقال جل وعلا في المال خصوصاً: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٨]، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٠]؛ فالتملك وحب المال غريزة فطرية في الإنسان، حتى أن إبليس - العارف بطبيعة خلق الإنسان ومواطن الضعف فيه – استغل هذا الجانب ووسوس لآدم - عليه السلام – بما تتطلع إليه نفسه وتهواه وتتمناه من الملك الذي لا يبلى ولا يفنى؛ قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠]، فشهوة الملك الذي لا يبلى أغرت آدم - عليه السلام - بمعصية خالقه، وستبقى شهوة الملك الذي لا يبلى أملاً وغاية للكثيرين من البشر، إن لم تكن للغالبية منهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٨]، المراد بالخير هنا: المال، وسمّي المال خيراً تسمية عرفية، إذ تعارف الناس على ذلك، كما أنه خير من حيث أنه يحصل به الخير الكثير إذا أنفق في مرضاة الله تعالى.

قال الفخر الرازي – رحمه الله - : « الخير: المال، من قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج: ٢١]، وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً، كما أنه تعالى سمى ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءاً في قوله: ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]»[١٩].

وجاء في «التفسير الوسيط»: «وتفسير الخير بالمال ورد بهذا المعنى في القرآن كثيرًا حتى زعم عكرمة: أن الخير حيث وقع في القرآن هو المال، وخصه بعضهم بالمال الكثير، وفسر به قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وإطلاق كونه خيراً على المال باعتبار ما يراه الناس، وإلَّا فمنه ما هو شر يوم القيامة»[٢٠].

فالإنسان مع كونه كنوداً – كفوراً لنعم الله جاحداً لها – فهو مع ذا محبٌ للمال حباً شديداً، ويدفعه ذلك في غالب الأحوال لجمعه بكل وسيلة ممكنة، دون مراعاة لحلال أو حرام، فقد يحتال للحصول عليه بكل حيلة، وقد يمنع حقوقاً مالية واجبة عليه، ويقدم شهوة نفسه وهواها ومتعتها بهذا المال على إنفاقه في طاعة ربه وتحصيل مرضاته وأداء الحقوق الواجبة عليه، ولا يمكن أن يخف ذلك التعلق والحب الشديد للمال إلا من خلال ضوابط الدين والإيمان والتعلق بحب الله ورسوله.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٨] أي: وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف، تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له، إذا كان مطيقا له ضابطا[٢١].

ووصف الله تعالى الحب هنا بالشدة دلالة على مدى تعلق القلب بالنعم والشهوات حتى أشغلته عن نفسه، وعن الانتباه لسلوكه تجاه ربه، فأغفلته عن حقيقة الدنيا التي تسير بخطواتها السريعة، فتعدو مسرعة بأوقاتها كما يعدو الراكب أو الغازي ليفوز بهدفه، فحركة هذا الإنسان في سرعته لم تكن مع الحركة التي أرادها الله، بل وجهها للركض واللهث وراء شهوات الدنيا، والانشغال بمتاعها الزائل حتى أنسته الهدف من وجوده في هذه الحياة، فباغته الموت في لحظة غفلة وسبات، مغطى بغبار الغشاوة التي أطلقتها سرعة حركته

بالعدو وراء شهوات الدنيا، فمنعت عنه التدبر والتفكر والاحتراز وأخذ الحذر من تلك اللحظة المفاجئة التي لا يعلم موعدها إلا الله وحده.

ومن النماذج الحية على هذا الانشغال بالمال وجمعه والتمتع به وإنفاقه على الملذات والشهوات، وتقديم ذلك على محاب الله ومرضاته: قصة قارون التي جعلها الله قرآناً يتلى، لتكون عبرة للخلق، ودرساً لكل من يشغله المال عن الله والدار الآخرة؛ قال تعالى: ﴿ * إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٦ – ٧٨].

إن حب المال والتملك غريزة فطرية عند الإنسان، وهو مرتبط بشهوة حب النفس، لأن المال يتوصل به إلى أغراض النفس والحصول على مشتهياتها، ولذلك تعلقت به كثيرا، وكلما ازدادت شهوة حب النفس ازدادت شهوة حب المال، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٨]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ١٨ – ٢٠]، وقد يكون حب المال فضيلة إذا جمع من حلال، وأدى حق الله فيه، وأنفق في وجوه الخير والطاعة، قال النبي ﷺ: «نعم المال الصالح مع الرجل الصالح»[٢٢]، ولكن شهوة حب المال فتنة قل من يصبر عليها ويسلم من آفاتها، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن: ١٦].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٨]، أي: وإنه لحب الخير - وهو: المال- لشديد، وفيه مذهبان:

أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح»[٢٣].

وقال العلّامة المراغي – رحمه الله – في تفسير آيات سورة الفجر: « ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: ولا يحث بعضكم بعضاً على إطعامه وإصلاح شأنه، وإذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضا بإطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون.

وإنما ذكر التحاضّ على الطعام ولم يكتف بالإطعام، فيقول: ولم تطعموا المسكين؛ ليبين أن أفراد الأمة متكافلون، وأنه يجب أن يوصى بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع التزام كلّ بفعل ما يأمر به أو ينهى عنه.

ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم، وخلوّ قلبهم من الرحمة بالمسكين، لم يكونا زهداً في لذائذ الحياة وتخلصاً من متاعبها، وعكوفاً على شؤون أنفسهم، بل جاء من محبتهم للمال فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي: إنكم تأكلون المال الذي يتركه من يتوفى منكم أكلاً

شديداً، فتحولون بينه وبين من يستحقه، وتجمعون بين نصيبكم منه ونصيب غيركم ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: وتميلون إلى جمع المال ميلاً شديداً، ميراثاً كان أو غيره.

وخلاصة ذلك أنتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة لانصرفتم عما يترك الموتى ميراثاً لأيتامهم، ولكنكم تشاركونهم فيه، وتأخذون شيئاً لا كسب لكم فيه، ولا مدخل لكم في تحصيله وجمعه، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة لما ضربت نفوسكم على المال تأخذونه من حيث وجدتموه، من حلال أو من حرام»[٢٤].

والواقع أن شهوة حب المال منزلق خطير، وكثيرا ما تقود صاحبها إلى حد البغي في الأرض والاستغراق في الطمع والجشع، والتعدي على الآخرين، قال تعالى: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ – ٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨ – ١١]، وقال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩].

وتقدمت الإشارة إلى قصة قارون وطغيانه وفساده، والذي كان السبب الرئيس فيه هو غناه وجمعه للأموال.

وجدير بالذكر أن اتباع الهوى هو أساس في اتباع الشهوات، والانشغال بالمال وجمعه عما ينفع المرء في دينه ودنياه، ومعوق رئيسٌ من معوقات تزكية النفس؛ فإذا اتبع الإنسان هواه وانساق له فإنه هلك - والعياذ بالله -؛ قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وعلى العكس؛ فإن من خالف هواه، وخاف ربه وأطاعه واتبع سبيله ومرضاته، فإنه ينجو ويسعد في دنياه وأخراه؛ قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ – ٤١].

ومما لاشك فيه أن الاستغراق في اتباع الشهوات والهوى يجعل النفس الإنسانية تفقد مقومات إنسانيتها وكرامتها وأفضليتها، ومن ثم تنحط إلى مرتبة البهائم العجماوات، بل تكون أضل منها عياذاً بالله؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤ – ٥]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ

﴿يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]؛ إنهم كالأنعام لأنهم يلهثون وراء شهواتهم وأهوائهم، ليس لهم من غاية ولا هدف إلا في إطار الحياة الدنيا، فتجمعهم بقطعان الأنعام صفة السعي الحثيث لتلبية الشهوات، بل الأنعام تفضلهم لأنها لم تخرج عن المهمة التي خلقها الله تعالى من أجلها، بينما هم خرجوا عنها، وضلوا عن صراط الله المستقيم الذي طُلبَ منهم سلوكه والثبات عليه(٢٥).

ما تقدم في المبحثين السابقين هو تشخيص للداء – النكران والجحود للنعم وعدم شكرها، ومحبة المال حباً شديداً، وما يتبع ذلك من محاذير ومنزلقات -، وبقي أن نعرف طرق العلاج، وطرق النجاة من ذلك الداء العضال، وهو بإذن الله تعالى ما سأتناوله في المبحث القادم.

المبحث الثالث:
العلاج القرآني

القرآن يأخذ بيد الإنسان ليحرره من الصفات الذميمة، بل ويُحَوِّلها إلى قيم إنسانية عليا، فيبين السبل والوسائل التي تأخذ بذلك الإنسان لترتفع بصفاته السلبية، فتحولها لتصبح صفات إيجابية، وبذلك يتحرر الإنسان ويسمو فوق كونه كنوداً غارقاً في حب المال والشهوات، ليصبح معترفاً بفضل الله، مستعملاً نعمه – ومنها المال – في مرضاته جل وعلا، وهذا ما يقدمه لنا القسم الأخير من السورة؛ فهو يعطينا العلاجَ لما بالنفس البشرية من شر؛ من خلال تذكر الآخرة والحساب، وأن كل إنسان سيُجزى بما عمل، فعندما يستحضر الإنسان الآخرة ويجعلها دوماً نصب عينيه، وعندما يستحضر علم الله وخبرته، واطلاعه ومراقبته؛ عندها يسعى للنَّجاة في الآخرة، ويضعُف تعلقه بالدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [العاديات: ٩ – ١١]، ألا يدري الإنسان كيف يكون الأمرُ حين يُبعث ما في القبور، ويخرج الناس إلى ساحة الحساب؟!، ويُحَصَّلُ ما في الصدور، فيظهر كل ما تحبسه القلوب وتكنُّه الضمائر، ويبدو ذلك عياناً بياناً، وفي ذلك اليوم يحاسب الله تعالى عباده، وهو الخبير بهم، العالم بدقائق أحوالهم، والمحيط بما خَفي من أسرارهم، ويَجزيهم عليها.

المطلب الأول: تذكر الآخرة والقبر خاصة:

قال جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ ﴾ [العاديات: ٩]، قوله: ﴿ بُعْثِرَ ﴾ هذه الكلمة مأخوذة من أصلين: البعث والنثر، فالبعث: خروجهم أحياء، والنثر: الانتشار كنثر الحب، فهي تدل على بعثهم منتشرين، وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار: ٤]، أي: بعثر من فيها، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ ﴾ [المعارج: ٤٣]، ووقوله: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ [القمر: ٧]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤][٢٦].

يقول ابن عاشور – رحمه الله - في معنى ﴿ بُعْثِرَ ﴾: «معناه قلب من سفل إلى علو، والمراد به إحياء ما في القبور من الأموات الكاملة الأجساد أو أجزائها»[٢٧].

وجاء في كتاب المفردات للأصفهاني – رحمه الله - : «بعثر؛ ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ [الانفطار: ٤]، أي: قلب ترابها وأثير ما فيها، ومن رأى تركيب الرباعي والخماسيّ من ثلاثيين نحو: تهلل وبسمل، إذا قال: لا إله إلا الله وبسم الله يقول: إنّ بعثر مركّب من: بعث وأثير، وهذا لا يبعد في هذا الحرف، فإنّ البعثرة تتضمن معنى بعث وأثير»[٢٨].

وقال الإمام الرازي - رحمه الله - حول هذه الآية: «لقائل أن يسأل لم قال: ﴿ بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ [العاديات: ٩]، ولم يقل: بعثر من في القبور؟، ثم إنه لما قال: ما في القبور، فلم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ [العاديات: ١١]، ولم يقل: إن ربها بها يومئذ لخبير؟ .

الجواب عن السؤال الأول: هو أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو يقال: إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل بعد البعث يصيرون كذلك، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء»[٢٩].

قال ابن عثيمين - رحمه الله - : «﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ ﴾ فيعمل لذلك، ولا يكن همه المال ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي: يتيقن، ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أي: نشر وأظهر فإن الناس يخرجون من قبورهم لرب العالمين، كأنهم جراد منتشر، يخرجون جميعاً بصيحة واحدة ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ ﴾ [يس: ٥٣]»[٣٠].

المطلب الثاني: الحرص على تزكية القلب وتطهيره:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾ [العاديات: ٩ – ١٠]، فإذا علم المرء أن كل ما يدور في صدره، وكل ما ينطوي عليه قلبه وضميره يُحصَّل ويُظهر يوم القيامة ويُحاسبُ عليه، فإن هذا يدفعه دفعاً إلى أن يحرص على طهارة قلبه، وتزكية نفسه ولا بد.

قال الأصفهاني - رحمه الله - في «المفردات»: «حصل؛ التحصيل: إخراج اللبّ من القشور، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبرّ من التبن. قال الله تعالى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾ [العاديات: ١٠]، أي: أظهر ما فيها وجمع، كإظهار اللبّ من القشر وجمعه، أو كإظهار الحاصل من الحساب، وقيل للحثالة: الحصيل، وحَصِلَ الفرس: إذا اشتكى بطنه عن أكله، وحوصلة الطير: ما يحصل فيه الغذاء»[٣١].

وقال ابن عاشور - رحمه الله - في معنى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾: «﴿وَحُصِّلَ﴾: جُمع وأحصي، ﴿ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾: هو ما في النفوس من ضمائر وأخلاق، أي: جمع عده والحساب عليه»[٣٢].

وقال ابن عثيمين - رحمه الله - : «﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك، وهنا جعل الله عز وجل العمدة ما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ ﴾ [الطارق: ٩ – ١٠]؛ لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر، حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقاً، لكن في الآخرة العمل على ما في القلب، ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ ﴾ [العاديات: ١٠]، ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور، مما تكنه الصدور، فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر»[٣٣].

المطلب الثالث: الخوف من الله ومراقبته:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [العاديات: ١١] أي: إن مربيهم وخالقهم خبير بأعمالهم وجزائهم يوم البعث والحساب، أي عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه، ومجازيهم عليه[٣٤]، فـ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة المتقدم ذكره في قوله: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا

﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات: ٩]، والخبير: هو الله تعالى، وهو أخص من العليم؛ لأنه في ذلك يقع الجزاء على ما اشتملت عليه القلوب من الأسرار والخفايا التي لا يعلمها إلا هو، وقد جمع الله بين العلم والخبرة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: ٣]، والله خبير بعباده يوم القيامة - كما هو اليوم خبير بهم أيضاً - ونص على يوم القيامة تعظيماً له، وتحذيراً منه، ففيه ساعة الحساب والمجازاة، فذكر فيه علمه - سبحانه وتعالى - وخبرته بالظواهر والبواطن، والضمائر والسرائر، فلا يخفى على الله من ذلك شيء، وسيتم الجزاء العادل بحسب هذا العلم وتلك الخبرة الإلهية؛ فلو علم الكفور من الناس المحب للمال هذا وأيقنه لعدّل من سلوكه، وأصلح من اعتقاده ومن أقواله وأعماله، فالآيات دعوة إلى مراقبة الله تعالى، والاستقامة على طاعته؛ فلا خلاص للعبد يومئذٍ إلا إذا عمل لهذا اليوم حساباً، واستعد له بالتمسك بالقرآن والسنة، والسير على الصراط المستقيم.

قال ابن كثير - رحمه الله - : «﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ۝١١﴾ أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، مجازيهم (٥) عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة»[٣٥].

فليعلم كل إنسان أن الله ربه الذي خلقه وصرَّف أموره بربوبيته، عالم ببواطن أعماله وما أسره في صدره وما أعلنه، و لا يخفى عليه شيء في الكون كله، وهو سبحانه سيجازيه على ما فعل في الدنيا من خير وشر.

قال ابن عثيمين - رحمه الله - : «﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات: ١١]، أي: إن الله عز وجل بهم: أي: بالعباد لخبير، وجاء التعبير {بهم} ولم يقل (به) مع أن الإنسان مفرد، باعتبار المعنى، أي: أنه أعاد الضمير على الإنسان باعتبار المعنى، لأن معنى {**إن الإنسان**} أي: أن كل إنسان، وعلق العلم بذلك اليوم ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾؛ لأنه يوم الجزاء، والحساب، وإلا فإن الله تعالى عليم خبير في ذلك اليوم وفيما قبله، فهو جل وعلا عالم بما كان، وما يكون لو كان كيف يكون»[٣٦].

ونعود للآيات الثلاثة لنتأملها معاً، دفعة واحدة، ونعيش في ظلالها، ونتلمس ما فيها من جمال العبارة، وروعة البلاغة، وحسن البيان؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات: ٩ – ١١].

(﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي: أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل، ولا يعلم بنور فطرته وقوة عقله ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أي: بعث وأثير ما في القبور، وإخراج موتاها، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: أظهر وأبرز ما في صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها، من خير أو شر، ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم، فيجازيهم على حسبها يومئذ، وتقديم الظرف، إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته، وهي إنما تكون يومئذ. قال الرازيّ: وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب. فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب، لما حصلت أفعال الجوارح.

ولذلك جعلها تعالى الأصل في الذم فقال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصل في المدح فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، و[الحج: ٣٥])[٣٧].

تأمل وتصوَّر: السرعة في البعثرة للأجساد، ثم السرعة والمباغتة - بعد البعث - في جمع ما في صدور الخلائق من البشر، من نوازع الخير والشر، والتي تبنى عليها تصرفات وسلوكيات الجوارح والقلب والعقل، فكانت سبباً في تكوين شخصية الإنسان وطبيعته في التعامل مع الآخرين في حياته الدنيا، وتعامله مع ربه ومدى التزامه بأوامره ونواهيه، فما يضمر الإنسان في نفسه لا يعلمه إلا الله، فالبشر لا يشاهدون إلا ظواهر الأمور من الإنسان، أما نوازعه الداخلية والمكنونة في صدره فالله وحده هو المطلع عليها، وفي ذلك اليوم يتم إظهار كل إنسان على ما كان عليه في داخل نفسه، وإخراج حقيقة ما في قلبه وصدره، وبناء على ذلك يكتب للإنسان مصيره عند الله.

وفي هذا ما يعمق إيمان المرء بربه وخالقه، وخوفه منه سبحانه، واستعداده لليوم الآخر بعمل الصالحات وترك المعاصي والسيئات؛ فالله هو الرب الذي خلقهم، وهو الذي يميتهم ثم يحييهم للحساب والجزاء، وهو الخبير بكل نفس، وبما كسبت من نوازع الخير والشر، فيعلم من كان من فعله الخير والصلاح، وكان مسارعاً إليه في الدنيا، وهو يعلم من كان من نفسه الميل للشر والفساد والانشغال به عن آخرته، فالإنسان الذي أشغل نفسه بالعدو للفوز بالآخرة والنجاة من نارها، فكان يسارع في فعل الخيرات، ويسابق غيره كي يفوز ويفلح عند ربه، فاستغل كل لحظة من عمره ووجوده في الحياة الدنيا؛ هذا الإنسان قويُ ببصيرته ونور قلبه، زاد الخوف والرجاء في قلبه ومراقبته لنفسه أمام ربه، فعاش متفكراً بحقيقة الحياة، وسرعة زوال نعيمها، وأن ما عند الله خير وأبقى، وكان متوقعاً لموته وانتهاء أجله في كل لحظة، فعاش مسابقاً للزمن ساعياً وراء هدفه - وهو النجاة من الدنيا والفوز بالآخرة - فكانت حركاته وسكناته كلها الله ومع الله، فهو متنقل من زاوية إلى أخرى، ليعمر فيها أثراً إيمانياً يتركه، فيحدث نوراً وسعادة لنفسه وللآخرين.

أما من شغل عمره بالعدو وراء الشهوات، والتعلق بطول الأمل، واستبعد قدوم الموت والساعة، أو نسيها ولم يدع لعقله المجال للتفكر والتدبر، أو الإيمان حتى بإمكانية وجودها، فعاش في أمن مع نفسه بجوار دنياه، وجعل حركاته وسكناته كلها بعيدة عن الله، قريبة من الهوى والشيطان؛ لاهثاً وراء شهواته، مطمئن طمأنينة زائفة، فمتاع الدنيا الزائل حوله في كل شيء، ولن يزول عنه بهذه السرعة كما ظن في نفسه، فلم يتوقع زوال الحال التي هو عليها، ولم يستحضر لحظة لقائه لربه وفراقه لدنياه، فسارع وسابق لأجل أن يجمع ما يقدر من شهوات الدنيا وخيراتها، وأصبح من حرصه وحبه الشديد لا يلقي بالاً لحقوق الآخرين من حوله، بل ولا يبالي بحق الله فيما اكتسبه، فامتلأ قلبه بخلاً وجشعاً وحباً للذات والشهوات، فقيدته تلك النفس بنوازعها عن رؤية الحق والعمل به، وانتشر غبار الجهل من حوله فحرم من نور البصيرة والمراقبة، والحذر من مباغتة الموت، ومثل هذا الإنسان في يوم بعثه تتكشف له الحقائق، ويمسح عنه غشاوة الجهل والشهوات، فيبصر ما أنكره ويجده حقاً، لكن عندها لن ينفعه ماله ولا خيره الذي تنعم به في الدنيا.

إن هذا الإنسان الغافل يعتبر في قمة الجهل والظلم لنفسه، فهو مَن سبَّب لنفسه الحرمان من النعيم، وما أعده الله له لو أحسن في دنياه وأدى حق ربه، ولعله عاش حياته الدنيا مع نعيمه القصير - سريع الزوال - في غم وهم ونكد، ولم يستطعم حلاوته بسب نسيان ربه، فالآن هو محروم من متعة نعيم الدنيا بتذوقه مع الطاعة، ومحروم من حلاوة النعيم الدائم عند الله في الآخرة.

وهكذا تنتهي تلك الصورة، الموحيةُ بالبأس والشدة، والمظلَّلة بالخوف والهلع، المصوِّرة للصراع؛ ذلك الصراع الذي يقع بين البشر، والذي يرجع إلى ما رُكِّب فيهم من حبٍّ للمال والشرف والسيادة.

الخاتمة

أهم نتائج الدراسة:

- السورة تربي النفس الإنسانية على قوة الإيمان والثبات.
- مراقبة النفس وتعديل سلوكها السلبي إلى إيجابي.
- عدم الأمن الدائم ونسيان مكر الله .
- التدبر في نعم الله وشكره عليها .
- الهمة العالية وعدم التكاسل والتغافل .
- عدم الركون للدنيا والاعتماد عليها .
- البذل والكرم في العطاء في سبيل الله .
- بيان أن الإنسان يحب المال حباً شديداً، ويدفعه ذلك للحرص والبخل ومنع الحقوق، إلا إذا هذّب بالإيمان وصالح الأعمال.
- إن ما ينتج عن تلك الطبائع الجبلية في الإنسان محاسب عليه أمام الله تعالى، ولا مناص له من الهرب منه، بحجة أن هذا طبع وخلق فيه؛ لأن الله جعل في الإنسان قدرة على تدريب النفس وتطبيعها على الخير وتعويدها عليه؛ حتى يصير طبعا وخلقا لا تفارقه.
- تقرير عقيدة البعث والجزاء؛ فالآيات الكريمة تثبت البعث بعد الموت، وأن هذه الأجساد التي بليت في القبور وصارت تراباً سوف يحييها الله ويجازيها على ما أضمرت قلوبها، فذلك ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩].
- القلوب عليها مدار صلاح الإنسان وفساده، فإذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.

أبرز التوصيات:

- على الداعية إلى الله تعالى أن يضع طبائع وجبلة الإنسان أمام عينيه، فلا يصطدم بالمدعو إذا رأى شيئاً من ذلك، ولا يترك المدعو كذلك، بل يجب عليه أن يتجه لتهذيب ذلك الطبع وتقويمه؛ لأن المدعو إنسان يحمل ما يحمل الناس من حوله من نوازع الخير ونوازع الشر.
- أن تتعامل البرامج التربوية، والمناهج الدراسية والأنظمة التعليمية مع النفس البشرية في ضوء ما بينه القرآن الكريم من الصفات الإنسانية سلبية كانت أو إيجابية، وتعزيز الجانب الإيجابي من الصفات، والعمل على محاربة الجانب السلبي وعلاجه.
- ضرورة فهم معاني كلمات القرآن وما في ذلك من فائدة لفهم كلام ربنا جل وعلا.
- معالجة الداء بتذكر البعث والزهد في الدنيا، والإقبال على الطاعة والبعد عن المعصية.

Abstract

The nature of man in the light of Surat Al-Adiyat
(Objective study)

By Samira bint Mohammed Galia

Praise be to Allah, peace upon his prophet. Holly Quran paid high attention to the human soul while Surat Aladyat was one of the Surats in the Holly Quran that paid attention to some human characteristics as it concentrate on human and the bad qualities on him then show to us the best treatment to these qualities.

The research discuss what mentioned in Surat Aladyat by explaining the total verses then show The arrogance in the nature of human and his strong love to money and this lead him to collect money and prevent rights of others and so give us the solution by raising human according to believing in Allah , fearing from him as he is controlling us and knows all what inside or outside our thoughts and also to believe in the other last, other life after death, as when people awake from their graves, all their pages of works shall be spread on them and shall be asked for all his actions even big or small, good or bad. This raining on believing on Allah can make our souls go straight according to Allah instructions.

Key word: Nature , Human , Surat Aladyat

الهوامش

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (٢١٠/٢٢).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م (٤٥٤/٢٠)، وفتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ (٥٨٧/٥).

(٣) التحرير والتنوير = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م (٤٩٨/٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٤٩٨/٣٠).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (٤٦٦/٨).

(٦) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق (٨٣/١١)، واللباب في علوم الكتاب (٤٥٦/٢٠)، و وفتح القدير، للشوكاني (٥٨٨/٥).

(٧) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، المعروف بتفسير البغوي، الحسين مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله نمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م (٥٠٨/٨).

(٨) رواه البخاري (٢٩٤٣) (٤٧/٤) كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، من حديث أنس ﷺ؛ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

(٩) تفسير ابن كثير (٤٦٦/٨).

(١٠) ينظر: تفسير ابن كثير (٤٦٦/٨).
(١١) التحرير والتنوير (٥٠١/٣٠).
(١٢) ينظر: معالم التنزيل (٥٠٨/٨).
(١٣) التحرير والتنوير (٥٠٢/٣٠).
(١٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة،١٣٨٤هـ-١٤٦٤م (١٦٠/٢٠).
(١٥) التحرير والتنوير (٥٠٢/٣٠، ٥٠٣).
(١٦) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ (٢٦١/٣٢، ٢٦٢).
(١٧) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ (ص٧٢٧).
(١٨) تفسير جزء عم، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م (ص ٢٩٣).
(١٩) مفاتيح الغيب (٢٦٢/٣٢).
(٢٠) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى (١٩٩٦/١٠).
(٢١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٦٢/٣٢).
(٢٢) رواه أحمد (١٧٧٦٣) «المسند» ط١، الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، وابن حبان (٣٢١٠) (٦/٨) من حديث عمرو بن العاص ﷺ ؛ «صحيح ابن حبان» تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، والبخاري في «الأدب المفرد» تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م (٢٩٩) (ص١١٢)، والحاكم (٢/٢، ٢٣٦) من طريقين، وقال في الموضع الأول: «صحيح على شرط مسلم»، وفي الثاني: «صحيح على شرطهما»، ووافقه الذهبي في الموضعين؛ «المستدرك على الصحيحين» تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت١٤١١هـ ١٩٩٠م، والطبراني في «المعجم الأوسط» تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين، القاهرة (٣١٨٩) (٢٩١/٣) ؛ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال محققو «المسند» (٢٩٨/٢٩): «إسناده صحيح على شرط مسلم».
(٢٣) تفسير ابن كثير (٤٦٧/٨).
(٢٤) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م (١٤٩/٣٠، ١٥٠).
(٢٥) بتصرف من مقال للدكتور محمد عمر الفقيه، بعنوان «علاقة النفس الإنسانية بحب الشهوات وانعكاساتها التربوية» منشور على الانترنت بتاريخ ٢٠١٠- ٠٢-٠٨ ، ورابط المقال هو:

http://www.grenc.com/print.cfm?artid=١٦١٨٨
(٢٦) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م (٦٧/٩).
(٢٧) التحرير والتنوير (٥٠٦/٣٠).
(٢٨) المفردات في غريب القرآن (ص١٣٣).
(٢٩) مفاتيح الغيب (٢٦٣/٣٢).
(٣٠) تفسير جزء عم (ص٢٩٤).
(٣١) المفردات في غريب القرآن (ص ٢٤٠).
(٣٢) التحرير والتنوير (٥٠٦/٣٠).
(٣٣) تفسير جزء عم (ص٢٩٤).
(٣٤) ينظر: التفسير الوسيط (١٩٩٧/١٠).

(٣٥) تفسير ابن كثير (٤٦٧/٨).
(٣٦) تفسير جزء عم (ص٢٩٥).
(٣٧) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ (٥٣٠/٩).

المراجع

- الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- التحرير والتنوير = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م (١٤٩/٣٠، ١٥٠).
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى.
- تفسير جزء عم، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة،١٣٨٤هـ- ١٤٦٤م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.
- صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ- ١٩٩٣.
- علاقة النفس الإنسانية بحب الشهوات وانعكاساتها التربوية، مقال للدكتور محمد عمر الفقيه، منشور على الانترنت بتاريخ ٢٠١٠- ٠٢-٠٨ ، ورابط المقال هو: http://www.grenc.com/print.cfm?artid=١٦١٨٨
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ .
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت١٤١١هـ– ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد، ط١، الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، المعروف بتفسير البغوي، الحسين مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله نمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين، القاهرة.

- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ .
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.